

أفول آشوري وإشراقه بابلية

د. شعلان كامل إسماعيل

قسم التاريخ / كلية التربية

جامعة الموصل

القبول

٢٠٠٣ / ٠٦ / ١٦

الاستلام

٢٠٠٣ / ٠٢ / ٠٥

Abstract

The downfall of Assyria and the rise of the modern Babylon are among various other important event that took place throughout the history of Mesopotamia (ancient Iraq). Never the less, the cultural origin is the most important as it descended down to the Iraqi peoples, and then to the Assyrian who developed and added to it. Eventually, the Assyrian culture descended down to the Babylonians who added one more stage of the cultural development within the history of Mesopotamia. The important thing, then, is the cultural communication among people of Mesopotamian. For it is through it that one can put the final touches on the historical vision and draw the genuine image of everything happened in Mesopotamia from its starting point up to its fading out.

ملخص البحث:

ان زوال الدولة الآشورية وقيام الدولة البابلية الحديثة وأحداثاً أخرى كبيرة ومهمة حصلت في تاريخ العراق القديم هي بالتأكيد مهمة وربما الأهم منها، هو الأصل الحضاري الذي توارثته الأقوام العراقية القديمة حتى وصوله الآشوريين الذين طوروه وأضافوا إليه الشيء الكثير ومن بعدهم البابليين (خلال العصر البابلي الحديث) الذين أضافوا حلقة جديدة من التطور الحضاري ضمن تاريخ العراق القديم، فالتواصل الحضاري الذي عاشته الأقوام العراقية القديمة هو المهم حيث يمكن من خلاله إعطاء تفسير لجوانب من تاريخ العراق القديم وكيف ابتدأت وأين وصلت.

تمهيد:

الدولة الآشورية خلال العصر الآشوري الحديث (٩١١-٦١٢ ق.م) وكما يصفها الباحثون المعاصرون، أعظم دولة عرفها التاريخ القديم واكبر مملكة في العالم القديم وأضخم قوة عسكرية وقتذاك، والعملاق الآشوري، وما الى ذلك، حتى حين اذ من تسميات تشد الأذهان. ونقلت النصوص القديمة الآشورية وغير الآشورية المعاصرة لها، كيف كانت الدولة الآشورية مسيطرة على معظم أرجاء العالم القديم وكل الشعوب والدول خاضعين لإرادتها. ومقدار العذاب والدمار الذي يصيب من يعلن العصيان ويخرج عن طوعها، حتى ان قسماً من الباحثين الغربيين تأثروا بتلك النصوص ووصفوا الآشوريين (بنظرة سطحية) بأنهم قساة واعتمدوا القوة العاتية في حكمهم للدول والشعوب المختلفة. والصحيح ان الآشوريين تعمدوا أسلوب إظهار القوة والقسوة المبالغ فيها في الحكم كأسلوب إعلاني ودعائي الغاية منه إرهاب أعدائهم وإحداث تأثير نفسي فيهم.

واليوم يتحدث كثير من الباحثين بنظرة ضبابية غير واضحة حول تهاوي الدولة الآشورية وزوالها بفترة قياسية قصيرة مقارنة بعمرها الطويل الذي يقارب الخمسة عشرة قرناً، بضمنها القرون الثلاثة الأخيرة من عمرها (العصر الآشوري الحديث) والتي اصطبحت الدولة الآشورية خلالها قمة في القوة والانتشار العالمي.

ويعزو الباحثون المعاصرون أسباباً عديدة أدت الى سقوط الدولة الآشورية منها أسباب اقتصادية وفساد الإدارة في الفترة الأخيرة من تاريخها واستنفاد الجهد العسكري لإمكانات الدولة المختلفة ومجيء ملوك غير كفؤين للعرش وتدخل النساء من الملكات والأميرات الآشوريات في شؤون الحكم وكثرة المؤامرات والفساد داخل القصر الملكي الآشوري وأسباب أخرى غيرها^(١). وبالتأكيد هذه الأسباب بمجموعها مع عوامل مساعدة أخرى كانت وراء سقوط لدولة الآشورية. وفي الأغلب ان العامل الأهم في سقوط الدولة الآشورية هو شيخوخة الدولة وهرمها تطبيقاً لنظرية ابن خلدون (المؤرخ والعالم العربي الكبير) التي ذكرها في كتابه "مقدمة ابن خلدون" حول ولادة الدولة وتشبيهاها بالطفل الصغير الذي يولد وينمو ويصبح في كمال قوته عند عمر الشباب وبعد ذلك ويمرور الزمن يبدأ بالضعف والانتكفاء حتى هرمه ثم موته وكذلك هي مراحل نشأة الدول حتى زوالها^(٢).

بداية النهاية:

يبدو ان الدولة الآشورية مرت بمراحل الولادة ثم الحياة والنمو حتى وصلت مرحلة الشيخوخة والهرم خلال الفترة الأخيرة من حكم الملك "آشور بانيبال" (٦٦٨-٦٢٦ ق.م) تحديداً بعد عام ٦٣٩ ق.م، حيث نقرأ في دعاء لهذا الملك، يذكر فيه ان المكائد تحاك ضده حتى من داخل قصره الملكي، ونقرأ في نص الدعاء:

"... في البلاد وفي القصر نزع ..."

العصيان والمكائد تدبر ضدي باستمرار ... " (٣).

هذه كلمات ملك يعد من عظماء ملوك الدولة الآشورية. من المؤكد ان آشور بانيبال يعد ملكاً قوياً وكفوءاً ضمن ملوك السلالة السرجونية التي حكمت الدولة الآشورية في قرننها الأخير، ونجح في إثبات قوته وسيطرته على مرافق الدولة وإدارتها بكل كفاءة والحفاظ على ممتلكاتها الواسعة ضمن أرجاء العالم القديم . وعلى الرغم من ذلك إلا ان فترة حكمه (٦٦٨-٦٢٦ ق.م) يمكن تقسيمها الى فترتين الفترة الأولى (٦٦٨-٦٣٩ ق.م) تمثل قوة ازدهار الدولة والحكم في كل المجالات والفترة الثانية (٦٣٩-٦٢٦ ق.م) تعد بداية النهاية ، حيث بدأت الدولة الآشورية بالضعف والانكفاء وانفلتت قبضتها وتصدأت، وعلى عرشها نفس الملك القوي آشور بانيبال. من الواضح ان الدولة الآشورية وبكل مؤسساتها القوية استنفذت واستهلكت وفقدت ضعفها وألمعيتها منذ أواخر حكم آشور بانيبال. الذي حاول الحفاظ على آلية دولته وإبقائها متقدة وسائدة ضمن نهجها الناجح المعروف او على الأقل الحفاظ على هيئتها وانجازاتها التي حققتها غير انه فشل بل وبدأت دولته السائدة نحو الزوال تسحبه معها وتصفي عليه روح اليأس والعجز . حتى يقول في دعاءه السابق الذكر تلك الكلمات واصفاً قصره ودولته بالفساد وحالة الضعف والتدهور. ومن الغريب ان نقرأ في احد النصوص التي عثر عليها في أورشليم وترجع بتاريخها الى عهد الملك سنحاريب (٧٠٤-٦٨١ ق.م) جَدَّ آشور بانيبال، يروي كاتبه (غير معروف لكسر في النص وعلى الأغلب انه احد زعماء اليهود) واصفاً رؤيا في منامه عن مصير الدولة الآشورية، حيث يذكر:

"رأيت في منامي ٠٠٠ مملكة آشور
المملكة العاتية، رأيتها ساقطة الى الهاوية
مثل الذئب عندما يسقط ويتخبط في بركة الطين
كذلك هم أتباع الملك سنحاريب بملابسهم البنفسجية
المذهبة ومظلاتهم، تلمع تحت البرد والمطر ٠٠٠" (٤)

من المؤكد ان دراسة ومعرفة أسباب سقوط الدولة الآشورية يعد موضوعاً مهماً ولكن محاولة فهم مضمون هذا الحدث التاريخي واستيعابه منطقياً وفق سلسلة أحداث تاريخ العراق القديم قد يكون الأهم حيث ستوضح الصورة بشكل أفضل وأدق وبالتالي سيتعمق فهمنا وإحساسنا بطبيعة وجود وتاريخ الدولة الآشورية وباقي دول العراق القديم عموماً.

إشراقة بابلية:

ان أقول الدولة الآشورية وبداية زوالها زامنه إشراقة بابلية، التي أضافت صفحة مشرقة جديدة الى صفحات تاريخ العراق القديم حيث استطاع نبو بلاصر (٦٢٦-٦٠٥ ق.م)، وهو شخصية قوية، ان يستغل ضعف الدولة الآشورية ويتزعم القبائل الكلدانية في وسط وجنوب العراق

خلال تلك الفترة وينصب نفسه ملكاً على بلاد بابل ويعلن استقلاله عن الدولة الآشورية عام ٦٢٦ ق.م مؤسساً المملكة البابلية الحديثة (الكلدية) (٦٢٦-٥٣٩ ق.م) ولم يحرك الآشوريون ساكناً لضعفهم إضافة لمشاكلهم الداخلية الكثيرة. وفي عام ٦٢٥ ق.م تحرك جيش آشوري لضرب نيو بلاصر دون تحقيق أي نصر ، وفي عام ٦٢٣ ق.م تقدم الملك الآشوري "سن - شار - أوشكن" بنفسه على رأس جيشه لضرب نيو بلاصر لكنه فشل في مسعاه^(٥).

وظلت الحالة هادئة بين الطرفين حتى عام ٦١٦ ق.م استغل "نابو بلاصر" هذه السنوات في أحكام قبضته على كافة مدن الجنوب وتعزيز مركزه ثم الانتقال من مرحلة الدفاع الى مرحلة الهجوم، حيث سار بجيشه بامتداد نهر الفرات ووصل منطقة "هيت" ولم يواجه أية قوة للآشوريين فقد سحبوا قواته لحماية مدنها الرئيسية^(٦).

غير ان الآشوريين سرعان ما تقدموا غرباً بمحاذاة لفرات وعلى مقربة من الحدود السورية العراقية الحالية التقى "نابو بلاصر" بالجيش الآشوري ودحرهم وغنم الكثير من أموالهم ومعداتهم^(٧).

ويبدو ان العمليات العسكرية التي قام بها "نابو بلاصر" على طول نهر الفرات والتي حقق فيها النصر اضطر الآشوريون الى إيجاد حلفاء لهم من المصريين يعتمدون عليهم في تدارك الموقف العسكري الحرج الذي شعروا انه بات يهدد وجودهم ، وبالفعل وصلت قوات ومساعدات مصرية الى نينوى وظفها الآشوريون لتحسين موقفهم العسكري^(٨).

ان التعاون الآشوري المصري قد يبدو غريباً ، ومن المرجح انه جاء مقابل تعهدات غير معلنة من قبل الآشوريين بضمان استقلال المصريين وعدم تكرار محاولات السيطرة الآشورية على مصر، والتي طبعت العلاقات بين الطرفين في القرن الأخير من حكم الدولة الآشورية. كما ان تحرك المصريين العسكري الفعلي قد يشير الى محاولاتهم لفرض أنفسهم كقوة سياسية وعسكرية امام القوة الجديدة التي تحالفت ضد الآشوريين مستهدفين من وراء ذلك إعادة نفوذهم او بعضه في بلاد الشام.

تصاعد الصدام بين نيو بلاصر وقواته مع الجيش الآشوري، بعد ان زحف نابو بلاصر بجيشه الى مدينة "بدانو" الواقعة في ضواحي مدينة "ارابخا" (كركوك الحالية) وحقق نصراً واضحاً على الجيش الآشوري واضطروهم للانسحاب الى ما وراء نهر الزاب . وتابعت الجيوش البابلية وزحفها وعبرت نهر دجلة الى الضفة اليسرى كمرحلة تمهيدية للهجوم على مدينة آشور^(٩).

ومع مطلع عام ٦١٥ ق.م تحرك نابو بلاصر يقود جيشه وسار على امتداد الضفة دجلة وعند وصوله الى مدينة آشور بدأ بحصارها دون مهاجمتها إلا بعد مرور شهرين غير ان هجومه فشل بل فاجئه الآشوريون بهجوم مضاد اجبره على الانسحاب والتراجع الى تكريت والاحتماء فيها^(١٠).

تمكن الآشوريون من صد "نابو بلاصر" وقواته بثقة واضحة حتى ظهر "الميديون" في نفس الوقت كقوة عسكرية ضد الآشوريين، الأمر الذي قلب الموقف العسكري لصالح نابو بلاصر. توجه الميديون في البداية نحو "أرابخا" ثم إلى مدينة "نينوى" (العاصمة الآشورية الحديثة) التي تركوها بعد أن فشلوا في السيطرة عليها وتوجهوا إلى مدينة "تاربيسو" (شريف خان حالياً ١٥ كم جنوب غرب نينوى) ولحق نابو بلاصر بالجيش الميدي وهاجموا سوية المدينة واستولوا عليها. وبعد ذلك هاجم الميديون لوحدهم مدينة آشور وسيطروا عليها في نهاية عام ٦١٥ ق.م على الرغم من إسراع نابو بلاصر للالتحاق بهم. وعقد الملك البابلي والميدي "كي - اخسار" عند أسوار مدينة آشور معاهدة صداقة عززت بمصاهرة سياسية بين "نبوخذنصر" ابن نبو بلاصر وولي عهده من ابنة الملك الميدي^(١١).

وفي عام ٦١٢ ق.م التقى نبو بلاصر وجيشه ثانية بالملك الميدي وجيشه وعسكرت جيوشهما حول مدينة "نينوى" وحاصرتها ابتداءً من شهر حزيران إلى شهر آب. وشنت خلالها ثلاث هجمات إلا أن الهجوم الأخير الذي وقع في شهر آب كان الهجوم الكاسح والذي تم على أثره تخريب المدينة تخريباً شاملاً^(١٢). ولا يعرف بالضبط مصير الملك الآشوري سن - شار - أوشكن إلا أن فلول الجيش الآشوري انسحبت في البداية إلى "نصيبين" وتعبها نبو بلاصر لفترة وجيزة عاد بعدها إلى نينوى التي جعلها مقراً وبقي فيها فترة قصيرة لجمع غنائم المدن الآشورية المجاورة ثم توجه إلى عاصمته بابل^(١٣).

وفي عام ٦١١ ق.م تقدم نبو بلاصر بجيشه وسيطر على مدينة "روكوتي" في شمال سوريا قرب "تل بارسيب" تمهيداً لضرب مدينة "حران" التي اتخذها الملك الآشوري الجديد "آشور - اوبلط الثاني" مركزاً له. ويبدو أن تمركز الآشوريين في "حران" يمثل محاولتهم الأخيرة لإنقاذ الموقف بعد سقوط نينوى. وتبين سير الأحداث فشل هذه المحاولة إذا انضم جيش ميدي إلى الجيش البابلي في عام ٦١٠ ق.م وتحركا صوب حران. في حين وصل في الوقت ذاته جيش مصري لنجدة الآشوريين ولكن سرعان ما انسحب المصريون والآشوريون من حران عابرين الفرات باتجاه الغرب الأمر الذي سهل على الجيشين البابلي والميدي دخول المدينة والسيطرة عليها^(١٤).

وبعد هذا التاريخ انقطعت المعلومات عن الملك الآشوري وجيشه، حيث يمكن اعتماد عام (٦١٠-٦٠٩) تاريخاً لنهاية الإمبراطورية الآشورية سياسياً وعسكرياً.

اتبع نبو بلاصر بعد إنهاء الوجود السياسي والعسكري الآشوري أسلوب توسيع مملكته وتنشيت أركانها، وتحديداً في الجهات الشمالية المعروفة ببلاد "اورارتو" وفي الجهات الغربية نحو بلاد الشام^(١٥). ونجح في مساعاه ممهداً الطريق لابنه وولي عهده من بعده "نبوخذ نصر الثاني"

(٦٠٤-٥٦٢ ق.م) من جعل المملكة البابلية الحديثة قادرة على إملء الفراغ السياسي والدولي الذي تركه الآشوريين بعد زوال دولتهم.

الخلاصة:

ان الحديث عن أفول وزوال الدولة الآشورية (٦١٢ ق.م) والكيفية التي تم بها هذا الزوال ودور البابليين الكبير فيه ربما يجرح قسماً من باحثينا المعاصرين . كونه يتناول صراع قوى عراقية وطنية فيما بينها الى حد الدمار وليس هذا فحسب بل تعاون الملك البابلي مع قوى أجنبية لضرب الدولة الآشورية وطوي صفحة ناصعة من تاريخنا القديم . ولكن ما حدث هو انهاء الوجود السياسي الآشوري فقط.

ان زوال الدولة الآشورية وقيام الدولة البابلية الحديثة ، وأحداثاً أخرى كبيرة ومهمة حصلت في العراق القديم ن هي بالتأكيد مهمة وربما الأهم منها هو التراكم والتواصل الحضاري الذي توارثته الأقوام العراقية القديمة حتى وصل الآشوريين الذين طوروه وأضافوا اليه وبالتالي انتقال الحضارة الآشورية الى البابليين ، خلال عصرهم الحديث ، الذين أضافوا حلقة جديدة من الطور الحضاري، ضمن تاريخ حضارة العراق القديم، فالتواصل الحضاري الذي عاشته الأقوام العراقية القديمة هو المهم حيث يمكن من خلاله إكمال بناء كل الرؤية التاريخية ورسم الصورة الصحيحة والحقيقية لما كان عليه فعلاً كل شيء في العراق القديم وكيف ابتدأ وانتهى.

ان قيام الدولة البابلية الحديثة (الكلدية) يمثل إشراقة جميلة في تاريخ العراق القديم . فالتعاقب السياسي للدول العراقية القديمة إحداث آنية ليست ذو عمق حضاري وفكري ، وقد تتعلق بتغير ملوك ومجيء غيرهم بعمليات فردية محدودة. بالإضافة الى ان زوال الدولة الآشورية رافقه إشراقة بابلية تعد هي الأخيرة في اشراقات حضارة وتاريخ العراق القديم . فالتغيير الذي حصل هو سياسي فقط في حين استمر تناقل منارة الحضارة العراقية القديمة وهو الأهم حتى وصل في النهاية الى المملكة البابلية الحديثة دلالة على التواصل الحضاري الذي عاشته جميع أقوام ودول العراق القديم.

قائمة الهوامش:

(1) Olmsted. A.T, History of Assyria , Chicago (1960), pp.410-435.

(٢) ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، تحقيق عبد الواحد وافي، القاهرة (١٩٦١)، الجزء الثالث، ص ٤٧.

- (3) Olmsted. A. T, OP. Cit., p. 414.
- (4) Whiting. M. S, The Glory and fall of the Assyrian empires, Helsinki (1995). p.370.
- (5) Ahmed. S. S, Southern Mesopotamia in the time of Ashurbanibal, Paris (1968). P86-87.
- (6) Gadd. C, the fall of Nineva, London (1923), p.81.
- (7) Thompson. C, "The new Babylonian Empire", CAH, vol. III, p 209.
- (8) Gadd. C, OP. Cit., p210.
- (9) Grayson. A, Assyrian and Babylonian Chronicles, vol. V, London (1975), p 38.
- (10) Olmsted. A. T, Op. Cit, p451.
- (11) Wiseman. D. J, Chronicels of Chaldean kings 636-556 B. c, London (1956), pp. 58-59.
- (12) Wiseman. D. J, Op. Cit , pp. 60-61.
- (13) Ibid. p 61.

(١٤) محمد. حياة إبراهيم، نبوخذنصر الثاني، بغداد (١٩٨٣)، ص ٥٠.

(١٥) المصدر نفسه، ص ٥٠-٥١.